﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

[الفتح: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ما النَّصر إلّا من عند الله تَعالى

لمّا سبق أنْ قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح: 22]؛ جاءت هذه الآية لتكشِف أنَّ السَّبب في تولية الكفّارِ الأدبارَ عن المؤمنين وفرارِهم مِن قتالهم هو أنَّه سبحانه قدَّر هذا؛ فكفَّ أيديَهُم عنهم، لا لسببٍ آخرَ، فهو سبحانه الّذي كفَّ أيديَ الكُفّار عن المؤمنينَ بالفِرار، وأيديَ المؤمنينَ عن الكفّارِ بالرُّجوع عنهم وتَرْكِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَّ﴾: (كف) تدلُّ تصريفاتُها على قبضٍ وانقباضٍ، ومن ذلك الكفُّ للإنسان، سُمّيت بذلك؛ لأنَّها تقبِضُ الشَّيء. ويُقال: كفَفْتُ فلانًا عنِ الأمر وكَفْكَفْتُه. ويُقال للرَّجل يسأل النّاس: هو يَسْتَكِفُّ ويتَكَفَّف[2]، وقولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: 28] أي: كافّا لهم عن المعاصي، والهاء فيه للمبالغة – في قول بعضِ أهل العلم – [3]، وكلٌّ كفٌّ للأيدي أو لِقَوْمٍ عن آخرينَ؛ فهوَ بمعنى الصَّرف عن القتالِ أو عن العدوانِ[4]، وهو المَعْنى المُراد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كف).
(3) الراغب، المفردات: (كف)، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 499.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كفف).

2) ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾: اليَدُ: الجارحة، وأصلها: يَدْيٌ؛ لقولهم في جمعهِ: أيْدٍ ويُدِيٌّ. وأفعُلٌ في جمع فَعْلٍ أكثرُ، نحو: أفلُس وأكلُب[1]، ويُسْتَعار في المنَّة، فيقال: لهُ عليه يَدٌ. واليَدُ: القوَّة[2]، ولمّا كانت يَدُ الإنسان أمامهُ في عَمَلِه؛ اسْتُعْمِلَ التَّعبير "بيْنَ يدَي كذا" للدّلالة على ما تقدَّم الشَّيءَ أمامه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [سبأ: 31] أي: الّذي تَقَدّمه وسَبَقه من الكتُب[3]، ومعنى قوله: ﴿كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ أي: منع أيدي كفّار مكَّة عنكم، ففرّوا ولم يُحارِبوكُم. ومعنى قولهِ: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم﴾ أي: حَمَلَكُم على الرُّجوع عنهم وتركهم[4].

3) ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾: (بطن) تدور اشتقاقاتُها على أصلٍ وهو إنسيُّ الشَّيءِ والمقبلُ منهُ، فالبطنُ: خلاف الظَّهر، وباطِنُ الأمر: دُخْلَتُه؛ أي: خلافُ ظاهِره. ومن أسماء اللّه تعالى: الباطن؛ لأنَّه بطن الأشياءَ خبرًا[5]؛ فهو الّذي ليس دونَهُ شيءٌ[6]، والبطنُ مِن كلِّ شيء: جَوْفُه. وبَطْن الأرض وباطِنُها: ما غَمُض منها واطْمَأنَّ، والدّاخلُ منها[7]، وقوله: ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ أي: في داخلِها[8].

4) ﴿أَظۡفَرَكُمۡ﴾: (ظفر) تدلُّ تصريفاتُها على أصلين؛ أحدهما: القهرُ والفَوْز والغَلَبَة، ومنه: الظَّفَرُ؛ وهو الفَلْج والفوزُ بالشَّيء. يقال: ظَفِر يَظْفَرُ ظفَرًا، واللّه تَعالى أظفَرَهُ. والآخَرُ: قوَّةٌ في الشَّيء. ومنه: الظُّفْرُ؛ وهو ظُفْرُ الإنسان. يقال: ظَفَّر في الشَّيء؛ إذا جعل ظُفْرَهُ فيه، والأصلان مُتقارِبانِ في القياس[9]، ووجه ذلك: أنَّ الظَّفر هو الفوزُ، كأنَّ الّذي ظَفَر وفازَ؛ نشبَ ظُفْرُهُ فيمن غَلَبهُ[10]، ومعنى قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: أقْدَرَكُم عليهم ونصَرَكُم من غير قتالٍ.

---

(1) الراغب، المفردات: (يد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يدي).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 294.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطن).
(6) كما في قول النبي ﷺ: «اللّهُمّ أنت الأوّلُ فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظّاهِرُ فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دُونك شيءٌ» رواه مسلم في صحيحه، رقم: (2713).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بطن).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 130.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظفر).
(10) الراغب، المفردات: (ظفر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبَيِّن الله تعالى في هذه الآية أنَّه هو الّذي كفَّ أيديَ المُشْركين عَنْكُم - أهلَ الإيمانِ -، وأيديَكُم عن المُشْركين ببطْنِ مكَّة، بعد أن منحَكم النَّصر عليهم وجَعَلَكُم تَملِكون أمرهُم، وذلك في حادثة الحُدَيْبية؛ حيث خرج المُشْركون لِقِتالِ رَسولِ الله ﷺ وأصحابِه، فتمكَّن المُسْلِمونَ منهم، وكانوا نحو ثمانينَ رجُلًا، ثُمَّ تَرَكوهُم ولم يَقْتُلوهم، وكانَ الله ﷻ بصيرًا بِما تَعْمَلونَ لا تخفى عليه خافيَةٌ[1].

منَّة الله على المؤمنين بتمكينهم من الكافرين دون قتالٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ استئنافيَّة[2]، والجملة بعدها مستأنفة هدفها بيان أنَّ ما توصَّلوا إليه من ظفَر ونصْر على أهل مكَّة دون قتالٍ هو منّة من الله تعالى عليهم، لا فضلَ فيه إلّا لله وحده.

تعدُّد المعاني بتعدُّد معاني الحُروف

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً الجملةَ بعدها على جملةِ ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: 20][3]؛ لِما بينَ الجُملَتَين مِن التَّوسُّط بين الكمالَيْن، وذلك لاشتراكِهما في الخبريَّة، وبينهما تناسبٌ ظاهرٌ في المعنى، وكذا تناسبٌ في اللَّفظ؛ إذ تكرَّر ذِكْرُ فعلِ الكَفِّ مسندًا إلى الضَّمير المستَتِر العائدِ إلى الله ﷻ.

الغرض من تعريف المسند إليه بالضَّمير وبيان المراد به:

تقويةُ الجُملَةِ وتَوْكيدُها

عُرِّف المسنَدُ إليه بالضَّمير في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾؛ لتقدُّم ذكر مرجعه وهو الله ﷻ في قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: 23]، وفي

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 514، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 794.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 263.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 183.

التَّعبير بالضَّمير أيضًا إيماءٌ إلى شُهرةِ اختصاصِ الوصفِ المذكور بعدُ باللّه تعالى، حيث لَم يُحتَج إلى التَّنصيصِ على الفاعلِ باسمه العلَم، بل إنَّ أدْنى إشارةٍ إليه تدلُّ عليه[1].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ جملةٌ مؤكَّدةٌ، ووجه ذلك أنَّ الضَّمير (هو) أُسْنِدَ إليه ﴿ٱلَّذِى كَفَّ﴾ والتَّقدير: وهو الكافُّ؛ لأن الصِّلةَ مع موصولِها في قوَّة المشتقِّ. ثُمَّ أُسْنِدَ فعلُ الكفِّ إلى الضَّمير المستتر العائد إلى اللّه تعالى، فكان في هذا تكرارٌ للنِّسبةِ، وهو مُقوٍّ للجملةِ مؤكِّدٌ لَها.

الغرض من تعريف المسند بالاسم الموصول ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

إظهار المنَّة على أهل الإيمان في الكفِّ عن القتال

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ مسندًا إلى الضَّمير (هوَ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ يفيد تقريرَ الخبرِ وتحقيقَه، وفيه الإيماءُ إلى أنَّ كفَّ أيدي الكفّار عن أهل الإيمان لا يُمكِن أن ينصرِفَ إلّا إلى اللّه تعالى؛ لأنَّ مِنْ شأنِ الصِّلةِ أن تكونَ مشهورةَ الوفِ لِمَن نُسبَت إليه.

وفي التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ - وهو معرفةٌ - تعريفُ لطرَفَي الإسنادِ؛ وذلك مفيدٌ القصرَ والاختصاصَ، ويقوّي ذلك تقديمُ المسنَد إليه على الخبر الفعليّ ﴿كَفَّ﴾، والمعْنى: لم يكفَّهم عنكم، ولا كفَّكم عنهم إلّا اللّه تعالى، لا أنتم ولا هم[2]. وفي ذلك إبراز للمنّة الإلهيّة عليهم في الكفّ عن القتال وإيقاع الصّلح.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَّ﴾:

ثبوتُ الكفِّ وتحقُّقه

عبّر بالفعل الماضي ﴿كَفَّ﴾ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ لأنَّه إخبارٌ عن أمرٍ مضى، والأصل في الفعل الماضي أن يكون كذلك؛ إذ كان هذا الكفُّ قد تحقَّق بالفعل، وذلك أنَّ هذه الآية قد نزلت بعد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 322.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 183 - 184.

صلح الحديبية. وفي التَّعبيرِ بالفعل الماضي أيضًا: إثباتٌ للكفِّ على وجهِ القطعِ واليقينِ تعظيمًا له.

الغرض من التَّعبير بالمجاز في ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ و﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾:

امتنانُ اللهِ تعالى علَيهِم بالصُّلح بعد مُشارَفَتهم عَلى القِتالِ

جاء التَّعبير بالأيدي في الجملتين في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ من باب المجاز المرسل، وعلاقته السَّببيَّة؛ لأنَّ الأيدي هي السَّبب في مباشرة القتالِ، والمقصود الأساس هو الكفُّ عن القتالِ. ويجوزُ أن يكون التَّعبير بالأيدي كنايةً عن شدَّة التَّأهُّب للقتال والتَّحفُّز له، حتّى لكأنَّ كلَّ واحد من الفريقين قد شحذ سلاحَه ورفعه في وجه عدوِّه. والغرض من ذلك الدّلالة على أنَّهم جميعًا قد شارفوا على الوقوعِ في القتال، لولا أنْ مَنَّ الله تعالى عليهم بتوفيقه، فأُبْرِمَ صلحُ الحديبية. ومثل هذا الأسلوبِ ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: 77]، فقوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: 77] أي: امنَعوها من القتال، وكذا في قوله: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾؛ فإنَّ المعنى: منعَها من القتال بمنِّه وفضلِه.

الغرض من الإضافة في ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ و(أيديكم):

دلالةُ الإضافة على التَّخصيصِ

أُضيفتِ الأيدي في المَوْضِعَين إلى الضَّميرين العائدين إلى فريقِ الكُفّار في ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ وفريق المؤمنين في (أيديكم) للدّلالة على التَّخصيص، والمعنى: كادت أيدي كفّار مكَّة تَطالُكُم، وكادت أيديكُم تَطالُهُم وتأهَّبْتُم جميعًا لذلك، حتّى كفّ الله تعالى جميع الأيدي عن القتالِ وكان الصُّلح.

معنى عن ودلالتها في ﴿عَنكُمْ﴾ و﴿عَنْهُم﴾:

إحلالُ اللهِ تَعالى الصُّلحَ محلَّ القِتال

(عن) في ﴿عَنكُمْ﴾ و﴿عَنْهُم﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ حرف جرٍّ دالٌّ على المجاوزة؛ وهي: بُعْدُ شيءٍ عن المَجْرورِ بها بواسِطَة إيجادِ مصدَرِ الفعل

الّذي قبلَها[1]، فبَعُدت أيدي المؤمنين عن الكفّار، وأيدي الكفّار عن المؤمنينَ؛ بسبب كفِّ اللّه تعالى أيديَ الجميع عن مقابِليهِم، فرُفِعَ السِّلاح، وحلَّ الصُّلح والعهد.

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِبَطْنِ﴾:

كـلُّ الحـرَمِ مِن مـكَّـة، ولـيـسَ جميعُ مَكَّةَ حرمًا

الباء في قوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ للظَّرفيَّة، والمعنى: في بطن مكة، أي: داخلها. وفيه معنى الإلصاقِ؛ إذ الإلصاق مِنَ المعاني التي لا تكادُ تفارقُ الباءَ. وقد استند القائلون بأنَّ المرادَ هنا هو يومُ الفتحِ لا يوم الحديبية إلى هذه الظَّرفيَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ والمؤمنين لم يدخلوا مكَّة يوم الحديبية، وإنَّما دخلوها بعد ذلك في العام الموالي يومَ الفتح. كما ذكر عبد الكريم الخطيب أنَّ الآيةَ إنَّما هي في الكلام عمّا كان يوم الفتح؛ حيث دخل النَّبيُّ ﷺ مكَّة، على رأس جيشٍ من عشرة آلاف مقاتلٍ، وأنَّ قريشًا قد فَزِعَت لهذا، واستسلمت من غير قتالٍ، طالبة الأمانَ من رسول الله ﷺ، بعد أنْ مَكَّن اللّه تعالى له من رِقابهم[2]. وجمهور المفسّرين يرون أنَّ الآية في صلح الحديبية، وأنَّ المقصود بقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حرَمُها، والحديبية فيها طرفٌ هو مِن جملة الحرَم[3]، على أنَّ لفظَ ﴿مَكَّةَ﴾ أوسعُ من الحرَمِ وأعمُّ، فليس كلُّ مكَّة حرَمًا.

الغرض من التَّعبير بالمجاز في (بطن):

تَشَوُّف الصَّحابة رضي الله عنهم لِلاغْتِمارِ لَم يَمنَعْهُم مِن امتِثال أمرِ الله تعالى بالكَفِّ

في قوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، حيث شُبِّه المكان المقصود ببطن الكائن الحيِّ إنسانًا كان أو حيوانا، بجامع الاحتواء والاشتمالِ في كُلٍّ. والغرضُ مِنْ ذلك: التَّعبير عن كونهم كانوا داخلَ مكَّة أو داخلَ حَرَمِها - إمّا حقيقةً وإمّا على مشارف الحرمِ -، ومع

(1) إسماعيل الحامدي، حاشية على شرح الكفراوي على الآجرومية، ص: 14.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 421.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 294.

ذلك امتثلوا ما أرادَهُ اللّه تعالى منهم من الكفِّ عن القتال وعدمِ إكمال المسيرِ نَحْوَ المسجدِ الحرام، مع تشوُّفهم إليهِ وعزمهم على التَّنسُّك فيه بأداء العمرةِ.

الغرض من الإضافة ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾:

توجيهُ المراد ببطن مكَّة على الاختلاف في مكانِ الصُّلْحِ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ هي إضافة تعيينٍ وتعريفٍ للمكان الّذي كان فيه الحدث. والبطن من كلِّ شيء وسطه أو مُنْخَفَضُه؛ وهي الجهة السُّفلى. وإطلاقهُ هنا إطلاقٌ مجازيٌّ للتَّعبيرِ عن أنَّ المكان المقصودَ هو داخل مكَّة، أو داخل حدودِ الحرمِ على القول بأنَّ المقصودَ بها: الحديبية؛ فإنَّ بعضَ الحديبية – وهي المنطقة الموجودة بين مكَّة وجدَّة، وتعرف حاليًّا بالشّميسيّ – داخلَ حدود الحرم، وبعضَها في الحِلِّ[1]، فيكونُ مكان انعقادِ الصُّلح في الجُزْءِ الحرامِ، فصحَّ بذلكَ أن يكون المرادُ بِبَطْنِ مكَّة وسَطَها. والمعروف من إطلاق لفظ البَطْنِ إذا أُضيف إلى المكان، أن يُراد به وسطُهُ[2].

وعلى فَرْضِ أنَّ انعقادَ الصّلح كانَ في الحلّ؛ فإنَّ التَّعبير بالبطن مقصودٌ به الدّلالة على الجوار والقُرب؛ أي: قُرْب الحرَمِ من وسَطِ مكَّة، وحينئذٍ يكونُ التَّعبير بـ (بطن مكَّة) مجازًا مرسلًا بعلاقة المجاورةِ.

ومن دلالات هذه الإضافة التَّعريفيَّة ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ الإشارة إلى أنَّ جَمعَ المشركين نزلوا من أرض الحرم المكيِّ؛ إذ نزلوا من جبَل التَّنعيم – وهو من الحرمِ – وكانوا أنصارًا لأهل مكَّة[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 185.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 185.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 186.

معنى مِن ودلالتها في ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

تـوكـيـدُ نـصـرةِ الله تعالى لأهل الإيمانِ

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ لابتداء الغاية، والمعنى: إنَّ آثار هذه المنَّةِ عليكم قد ظهَرت مِن بعدِ أن آزركم اللّه تَعالى وأظْهَرَكُم عليهم؛ فأخذتُموهُم أسْرى[1]، وحاصل هذا: أنَّ اللّه سبحانَهُ قد كفّ أيديَ المُشركين الخارجينَ على عَسْكَر رسول اللّه ﷺ بالحديبية، يلتمسون غِرَّتَهُم ليصيبوا منهم، فبعث رسولُ اللّه ﷺ فأتى بِهم أسْرى، ثُمَّ خلّى عنهم رسولُ اللّه ﷺ ومنّ عليهِم ولم يَقْتُلْهم[2].

كما أنَّ في (مِنْ) معنى التَّوكيدِ؛ إذ ذلك هو الغالب عليها عِنْد دخولها على الظَّرف (قبل) أو (بعدُ).

الغرضُ من التَّعبير بالظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

سُـرْعَـةُ ظُـهـورِ مِنَّة الله تعالى ونِعْمَتِه

عُبِّر بالظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ لتَعْيين ابتداء الغايةِ؛ وهي أنَّها - أي: نعمةَ كَفِّ أيدي المشركين عَنْكُم - ظَهرت فَوْرًا بعدَ أن نصركُم اللّه تعالى عليهم فَأسَرْتُموهُم.

الغرض من التَّعبير بالمَصْدَرِ المؤوَّل ﴿أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ﴾:

الجمعُ بينَ ثُبوتِ الظَّفر وتجدُّده

أوثِر التَّعبير بالمصدر المؤوّل في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ﴾ دون المصدر الصَّريح؛ ليتأتّى الجمعُ بين القوَّة المستفادة من المصدرِ بإثبات حصولِ الظَّفَر، وبينَ الحركةِ والتَّجدُّد المستفادَين مِنَ الفِعْلِ، ليجمع المصدرُ المؤوّل بين الخَصيصَتَيْن؛ خصيصةِ المَصْدَرِ، وخصيصَةِ الفِعْلِ.

نكتة التَّعبير بالظَّفر دون النَّصر أو غيره:

الظَّفر دونَ قتالٍ نِـعْـمَـةٌ عظمى تُذكر فتُشكَر

أوثر التَّعبير بلفظِ الظَّفر في قول اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ دون التَّعبير بغيرِه، كالنَّصر والغلبة، إذ لم يَرِدِ

(1) ابن جزيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 290.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 236.

النَّظمُ القرآنيُّ: (من بعد أن نَصَرَكُم عليهم) أو نحو ذلكَ؛ لأنَّ حقيقةَ الظَّفرِ: الفوز بالمطلوبِ، فلا يستلزِمُ وجودَ قتالٍ أصلًا، فكانَ الظَّفر أعمَّ مِنَ النَّصرِ بهذا الاعتبارِ[1]، وذلك أنَّ الله تعالى قد امتنَّ على المؤمنين بأنْ أنالهم ما ينال بالقتال دونَ قتالٍ، وهذهِ نعمَةٌ عُظمى ذكرها القرآنُ الكريمُ في موضعٍ آخرَ؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: 25]، بأنْ أحْدَثَ الصُّلح بينهم وبينَ المشركين على أن يَعودوا مِن قابلٍ لأداءِ العُمرَةِ.

معنى (على) ودلالتها في ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

ظهور أهل الإيمانِ وعلوُّهم على الكفّار

الحرف (على) من أخصِّ خصائصه الدّلالَةُ على الاستعلاءِ، وهوَ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ استعلاءٌ مجازيٌّ، وهو وإن لم تَقع حربٌ؛ فإنَّ الاستعلاء - الّذي مِن دلالاتهِ التَّمكّنُ - حاصلٌ مِن حيثُ إنَّ المشركين قد اصْطَلَحوا وهُم مضطرّون، ورسولُ الله ﷺ ومَن معَه مُختارونَ[2]. على أنَّ هناك فائدةً أخرى أضافها التَّعبير بـ (على)؛ وهي تضمين الظَّفر معنى الظُّهور والعلوّ عليهم؛ أي: الغلبة التامّة[3].

معنى الواو ودلالَتُها في ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

التّناسب اللّفظيّ والمعنويّ بين الجُمَلِ القُرآنيَّة

(الواو) في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾؛ لما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ فإنَّهما مشتركتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا التَّناسُبُ اللَّفظيُّ؛ فاتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما وهو الاسم الأحسنُ في الجملة الثّانية، والضَّمير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 186.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 266.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 63.

الرّاجع إليه في الجملةِ الأولى، وأمّا التّناسبُ المعنويّ؛ فإنَّ الجملةَ الثّانيةَ تذييلٌ لِما قبلَها[1]. ويجوزُ أن تكون الواوُ استئنافيَّةً أيضًا، والجملةُ بعدَها مستأنَفَةً واردةً لبيانِ عمومِ القدرةِ الإلهيَّةِ وسعةِ الصِّفاتِ الرّبّانيَّةِ.

الغرض من التَّعبير بجملةِ التَّذييل اسميَّةً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

تَسْلِيَةُ أهلِ الإيمانِ وإزالَةُ الفَزَعِ مِن قُلوبهم

الجملةُ في قولِ الله تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ تذييلٌ يُرادُ به بثُّ الطُّمأنينة في قلوب المؤمنين الّذين أفزعهم شدَّةُ أهلِ مكَّة وغِلْظَتُهم وصلابتهم، ورِفْقُ النَّبيِّ ﷺ ولينُه[2]، فكان هذا التَّذييل تسليةً لهم وإزالةً للفَزَع الّذي حلَّ بقلوبهم؛ لأنَّ الله تعالى بصيرٌ بالأمر كلِّه؛ ما تَعْمَلونَهُ وما يعملونَه، وقد وعدكم النَّصر فلِمَ الفَزَعُ؟.

ووردَت جملةُ التَّذييل اسميَّة مبدوءةً بالفعلِ النّاسِخ (كان) الذي لا يَدْخُل إلّا على الجُمَلِ الاسميَّة؛ للدّلالة على شِدَّة المُراقبَةِ الإلهيَّة لكلِّ ما يَجْري مِن كِلا الفَريقَيْن، فهوَ سبحانَهُ كان ولا يزالُ بِكُلِّ شيءٍ ممّا يجري بصيرًا.

و(بصير): صفة مشبَّهة، وكونه سبحانه بصيرًا بعباده وبكلِّ ما يجري في الكون أمرٌ ثابتٌ لا يتبدَّلُ. وفي ذلك من إيقاع الأُنْسِ بالمُؤمنين وطمأنَتِهم ما فيه.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على خبر كان ﴿بَصِيرًا﴾:

الاهْتِمامُ بالمُقَدَّمِ أنسبُ لسياق الآية الكريمة

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ لإرادةِ الاهتمام، لا لإرادةِ الاختصاص؛ فإنَّ الاختصاص هنا غيرُ ملائمٍ لمقصودِ جملةِ التَّذييل مِنْ بيانِ سعةِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ؛ إذ يكون المعنى: الله بصير بما تعملونه لا بغير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 186.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 325.

ذلك، وهو معنًى ظاهرُ الفسادِ، بل التَّقديمُ لإرادةِ الاهتمام بالمقدَّمِ. كما أنَّ في التَّقديمِ مراعاةً لتناسب فواصلِ الآي.

دلالة التَّعبير بـ (ما):

إحـاطـة الـلـه تعالى بكلِّ شيءٍ عِلْمًا وبصرًا

(ما) في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى: الّذي، أي: وكان الله بما تعملونَهُ بصيرًا. والعائدُ محذوفٌ؛ لكونه واقعًا في محلِّ نصبٍ بالفعلِ، وهو كثيرُ الحذفِ شائعُهُ.

والتَّعبير بـ (ما) المصوليَّةِ مفيدٌ العُمومَ، فهو سبحانه بصير بكلِّ ما يعمله النّاس باطنًا وظاهرا، سرًّا وجهرًا، لا يغيب عنه من عملهم شيءٌ، بل لا يغيب عن بصره ولا عِلْمِه مثقالُ ذرَّة في كلِّ الأكوان العلويَّة والسّفليَّة، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 3]. ويجوز أن تكون (ما) مصدريَّة، فتُؤوَّلُ مع مدخولها بمصدر، والتَّقدير: وكان الله بِعَمَلِكُم أو بِعَمَلهم - بناءً على قراءة الغَيْبِ - بصيرًا.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

سعَةُ عِلْمِ الله تَعالى وبَصَرِه

عُبِّر بالفعل المضارع في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ للدّلالة على أنَّ كلَّ ما يعملهُ النّاس ويُجدِّدونَهُ ويُحدثونَهُ معلومٌ لله تعالى مراقب منهُ سُبحانَهُ وهو تحت بصره المطلق.

الغرَضُ مِن تَنْكيرِ ﴿بَصِيرًا﴾:

عظمَةُ الله ﷻ ذاتًا وصِفاتٍ

نُكِّر لفظُ ﴿بَصِيرًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ لإفادة التَّفخيم والتَّعظيم، فبصرهُ وعِلْمُه سُبْحانَهُ لا مُنْتَهى لكماله، فإنَّ له سُبْحانَهُ الأسماءَ الحسنى والصِّفات العظمى التي تليق بكماله وجلاله.

تنوُّع القراءات، وثراء المَعْنى:

التَّكامُل الدّلاليُّ لِـلـقـراءاتِ القُرآنيَّةِ

قُرئ الفعلُ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ بقراءتَيْنِ؛ فقد قرأ أبو عمرٍو وحده ﴿يَعۡمَلُونَ﴾

بالياءِ على الغَيبةِ، إتباعًا لقوله قبلُ: ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ و﴿عَنْهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾، وقرأ باقي العشرة بالتّاء على الخطاب، رجوعًا إلى الخطاب الواردِ في قوله: ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾ و﴿عَنكُمْ﴾[1] في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾، والقراءتان متكاملتانِ؛ فإنَّهما يُفيدان عمومَ علم الله تعالى بما يَعْمَلُهُ المؤمنونَ ويعملُهُ الكافرونَ، فكان تنوُّع القراءاتِ وتعدُّدها بمنزلةِ تعدُّد الآياتِ في تكامُلِ الدّلالةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظَّفر والنَّصر:

الظَّفر أعـمُّ من النَّصر مُطْلقًا

أصل مادَّةِ (نصر) يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائِه. يُقال: نصر اللّه المسلمين؛ إذا آتاهُم الظَّفر على عَدوِّهم[2]، والنَّصْرُ والنُّصرة: العونُ[3]، ويختَصُّ النَّصر بمعنى المعونة على الأعداءِ. ويدلُّ عليه قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51] وقوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: 3]، وقوله: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝١١٦﴾ [الصافات: 116]؛ فإنَّ سياقَ الآيات في الإخبارِ عن ظفَر الأنبياء ﷺ، ونُصْرَتِهم على أعدائهم، إمّا بالغلبةِ وإمّا بالحُجَّة[4].

والظَّفر: الفَلْجُ والفوزُ بالشَّيء، يُقال: ظَفِر يظفَر ظفَرا، والله تعالى أظفره. وقال تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[5]، وأصله من: ظَفِرَ عليه؛ إذا نَشَب ظُفْرُهُ فيه[6]. وذكر أبو هلالٍ أنَّ الظَّفر هو العلوُّ على المُناوِئ المُنازِع، كما قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ

(1) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 330، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 715، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 375.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(3) الراغب، المفردات: (نصر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية ص: 540.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظفر).
(6) الراغب، المفردات: (ظفر).

عَلَيۡهِمۡۚ﴾، وقد يُسْتَعمل في معنى الفوز، فيُقال: ظفِرَ فلانٌ بِبُغْيَتِه؛ أي: فاز بها، وأصلهُ: نيلُ الحظِّ من الخير[1].

وبينَ الظَّفر والنَّصر عموم وخصوصٌ مطلَقٌ؛ فالظَّفر أعمُّ من النَّصر؛ إذِ الظَّفر هو الفوزُ بالمطلوبِ مطلقًا، فلا يَقْتَضي وجودَ قتال[2]، بخلافِ النَّصر فإنَّه يكونُ في مواجهة الأعداء، فالأظهر فيه أنَّه لا يكون إلّا بقتالٍ، ولهذا أوثرت مادَّة الظَّفر على مادَّة النَّصر في قول الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

(1) العسكري، الفروق اللغوية ص: 340.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 186.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"